أعلام الشعر العربي في باكستان

*الدكتور حامد أشرف همداني

Since the introduction of Islam in the subcontinent, the Arabic language also became the focus of the indigenous. They learned it primarily for religious purposes but did not confine themselves to the religious literature only. The rich lieterature of the Arab fascinated them. They could not resist appreciating it and began contributing in it by composing verse and prose. After the partition in 1947, this practice continued and in Pakistan a number of emerging poets selected Arabic as their means of expression and were admired even by its native speakers. Arabic language and the tradition of composing verse in Pakistan is the focus of this article. The article has also been incorporated with the examples of Pakistan Arabic poets' compositions.

إن عناية باكستان باللغة العربية نابع عن اقتناع راسخ، وعقيدة صافية لأنها لغة القرآن الكريم ولغة دينهم وثقافتهم وآدابهم ووحدتهم وعقيدتهم. إذاً فليس هناك غرابة في انتشارها، ولا عقبة في دراستها، ولاصعوبة في تطبيقها لأنهم ألفوها من قديم وورثوها عن الأجداد والآباء وطرقوا أبوابها بالتأليف والتصنيف وقرض الشعربها.

وفي باكستان الإسلامية قد شاهدت العلوم العربية والإسلامية تطوّراً هائلاً وتغيّراً مدهشاً، فقد كانت تُدرَّس وتعلّم في المدارس العربية الدينية الخاصة من قبل إنشاء باكستان وفيها نشأ العلماء الأفاضل والأساتذة الأماثل فقد ملأوا الدنيا درساً وتدريساً وتصنيفاً وتأليفاً، ولمّا نشأت دولة باكستان الإسلامية وقامت واستقلّت، شرعت تتوسّع مجالات نشأة هذه العلوم فشملت المعاهد العلمية الحكومية من المدارس والكليات والجامعات، ولاتزال تتوسّع، وظهر فيها عددٌ كبير من الأدباء والشعراء خاصة، قد جعلوا همّهم احتثاث قرائحهم وإثارة ملكاتهم لقرض الشعر العربي وإنشاده.

والذي يتتبّع آثار الشعر العربي في باكستان، وخاصة الشعر العربي الذي نشأ في هذه البلاد بعد استقلالها، تغمره الحيرة ويدهشه الإعجاب حيث يجد هذه الكرة الكاثرة من الشعراء الذين تناولوا اللغة العربية لإبداء مشاعرهم وجعلوها مجالاً للتعبير عن أحاسيسهم وعواطفهم، والحقيقة التي لا تنكر أن نظم الشعر في أية لغة أصعب وأشدّ من الإنشاء في النثر، ولا يستطيع كل واحدٍ حتى من أهل اللغة أن يقرض شعراً، لأن هذه الملكة موهبة من الله العزيز العليم ثم إنه يتقاضى ثقافة موسّعة ومهارة لغويّة تامة، مع سيطرة بالغة على اللغة ومعرفة كاملة لموارد اللغة رمصادرها، وأبنيتها وأساليبها وغيرها الأشياء الكثيرة. فإذاً قول النثر باللغة العربية دليلٌ على تمكّن هؤلاء الشعراء على هذه اللغة الكريمة.

* الأستاذ المشارك بالقسم العربي، الكلية الشرقية، جامعة پنجاب، لاهور

ويمكن لنا أن نقسم شعراء باكستان بالعربية إلى مدرستين أساسيتين : المدرسة التقليدية والمدرسة التجديدية ، ونقصد بشعراء المدرسة التقليدية شعراء العربية في المدارس الدينية ويراد بشعراء المدرسة التجديدية شعراء العربية في المعاهد العلمية الحكومية باعتبار الصفة الغالبة .

إن الأغلبية الغالبة من شعراء باكستان الذين استقوا من مناهل المدارس الدينية تأثروا كثيراً بمناهجها الدراسية فهم بطول درسهم للأدب العربي وتدريسه شغفوا بقرض الشعر ولكن شعرهم في الغالب شعر تصنع وتكلف. وليس بالشعر المطبوع الذي ينبع من القلب ويفيض رقة وعذوبة، ولا الشعر الحماسي الذي يمتاز برصانة التراكيب، وفخامة الألفاظ، وجزالة الأسلوب. ونجد بعض المستثنيات في شعر القلة من الأدباء الذين يمكن أن نعتبرهم من الشعراء المطبوعين. ولعلّ السبب في ذلك حذو شعراء باكستان نماذج الشعر الجاهلي (المعلقات السبع، وديوان الحماسة) وشعر المتنبي، دون النظر في الشعر العذري الرقيق العذب كشعر عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة ومن الشعراء العباسيين النوابغ ، بشار بن برد وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية وابن الرومي وأبي فراس الحمداني وغيرهم من العشرات الفحول من الشعراء الذين نقف على شعرهم الكثير في الموسوعات الأدبية القديمة مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه ويتيمة الدهر للثعالبي وغيرها.

وكما أنه من المعلوم المعترف به أن ابتعاد اللغة وآدابها عن عقر دارها وموطنها الأصلي يبعدها عن مستوياتها الأدبية وأساليبها اللغوية، كما أن الإنتاج بها في النظم يتقلص ويتخلف ويضعف ويتضاءل كلما ازداد البعد من الموطن الأصلي وانقطعت الصلة بأهل اللغة. وكذلك فإن إتقان لغة من اللغات ورفع مستوياتها العلمية وأساليبها الأدبية يحتاج إلى الاحتكاك بأهل اللغة والاطلاع على أساليبهم في التعبير كتابة وحديثاً والاستسقاء من مواردهم الثقافية الأصلية، كما أنه في حاجة إلى حفظ الكثير من آدابهم شعراً ونثراً، وقضية اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية لاتختلف دون شك وأي استثناء فقد كان من الشعراء العرب الذين هاجروا إلى بلاد شبه القارة، وهم قليلون جداً، فقاموا بدورهم في إنتاج الشعر والتأثير فيما أنتجه تلاميذهم من أهل البلد كما أن من الشعراء والكتاب الذين احتكوا بأهل اللغة من العرب الكرام سواء كان ذلك باللقاء أو الاختلاط مع القادمين الطارئين وزُواراً أو بالرحلة إلى البلاد والعواصم الثقافية العربية والمراكز الأدبية مسافرين وطلاباً.

إن الدراسة لما أنتجه الشعراء باللغة العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية توضح الفرق جلياً بين ما قاله المستفيدون من أحواض العروبة استفادة مباشرة وبين ما أنتجه من ذهب مذهب المقلدين المتكلفين الذين لم يتمكنوا من التتلمذ على أهل اللغة أو الاستفادة من عواصمهم الثقافية مباشرة(١).

فنرى أصحاب الشعر العربي الذين تربّوا في أحضان المدارس الدينية قد ظلوا في الغالب يكتفون بما وصل إليهم من الشعر العربي في الجاهلية والإسلام أوما قرأوه في المقررات الدراسية بطريقة قديمة عقيمة كالمعلقات وديوان الحماسة وشعر حسان بن ثابت، ثم أخذُوا يردّدُونَ ويلوكون ما قرأوه، والواقع أنّ هذا النوع من الشعر لكثير جداً، وأن الكثرة الكاثرة من الشعراء في شبه القارة الهندية الباكستانية ينتمون لهذه المدرسة في تاريخ الشعر العربي

خلال القرون الطويلة وذلك لأسباب:

فمنها أن العربية وعلومها وآدابها في هذه المنطقة كانت منوطة برجال الدين أو من نحا نحوهم من المتأدّبين ومن ثم لم يقدّر للشعر العربي أن ينال حظاً من العبقرية والإبداع إلا نادراً، ومنها أنهم لم يوفقوا في تحقيق التبادل الثقافي والاحتكاك بأهل اللغة، ومنها أنهم لم يتمكنوا من الحصول على الدواوين والمجاميع الشعرية لكبار الشعراء العرب لكل عصر من العصور و كل مكان من البلاد العربية المختلفة، ومن ثم لم يكن من الممكن للكثيرين منهم أن يطلعوا على الشعر العربي على اختلاف الأنواع والأزمنة والأماكن ، وبالتالي لم يستطيعوا أن يأتوا بالإنتاج الشعري يمثل عصرهم وبيئتهم وإنما ظلّموا يردّدون على ألسنتهم ماتيسرلهم من المعاني والمفردات اللغوية.

ويغلب على شعرهم الأسلوب العلمي لا الأدبي، ويسود على شعرهم التأثر بالقرآن والحديث النبوي وشعر القدامى فتكثر عندهم الاقتباسات والتضمينات منها كما نرى الكثرة الكاثرة من هؤلاء الشعراء يحاكون ويعارضون شعر القدامى و كان جميع هؤلاء الشعراء علماء الدين ورجال العلم والثقافة ولكل هذه السمات انعكاسات في شعرهم وإن كان ضعيفاً من الناحية اللغوية ولم يكن سبكه يضارع الشعر العربي الموروث بسبب ثقله بكلمات ذات صبغة علمية وبديعية ولكنه من حيث الأفكار والمعاني شعر قوي ذو أثر بالغ في المثقفين وإنه يخاطبهم دون الشعب. وإذا كان الأمر على ماذكرنا فلا ينبغي أن يحكم عليه بالتقليد الجامد.

وخلاصة القول أن إنتاج الشعراء لهذه المدرسة ليس بمجرد تقليد وترديد أو همس سخيف، بل يوجد فيهم عدد غير قليل من الشعراء قد قرضوا الشعر أو نسجوه على منوال الشعر الجاهلي أو الإسلامي يكاد يضاهي شعر الكبار من الشعراء في عصور الجاهلية والإسلام، وفيهم من أنتج شعراً غزيراً حتى نصب له ديوان شعر يستحق الدراسة والاهتمام فمن هؤلاء الشعراء الشيخ محمد يوسف البنوري الذى تقف عليه أجيال من علماء العربية في باكستان.وفيما يلي بعض أبياته من قصيدته في نعت النبي الكريم سيدنا الهاشمي محمدﷺ تحتوي على قدر كثير من شمائله الكريمة. [الكامل]

طاف الخيال من الحبيب فزارا ... فاهتز قلب المستهام وطارا

سرت لمسرة في لعروق جميعها ... كدم الحياة سرى هناك ودارا

طيف بدا يجلو الهموم رواحه ... روح الحياة وسره إذ سارا

قرّ العيون بشيمة من برقه ... فله جمال يعجب الأبصارا

للّه من طيف يسرّ قدومه ... قلب العميد دجى فزير وزارا

لا غرو طيف في الزمان مبارك ... طيف النبي الأبطحي ديارا

يا مدنفاً في حبه وجماله ... متحيراً لكماله إكبارا

ألقى عليك شمائلاً من حسنه ... في عقد درّ يعجب الأنظارا

هو أدعج كحل العيون وأبلج ... أقنى أزج وأهدب أشفارا

هو لم يكن بمطهم ومكلثم حسن المحيا في الأسالة دارا
طلق المحيا إذا تبسم ضاحكاً فاقت أسارير الجمال نضارا
فجبينه كالبدر يشرف دلجة قد فاق بدراً وجهه إذ نارا(٢)

ويقول يتغزل بعنوان "عبرة ذكرى" [الطويل]

خليليَّ عوجا ساعةً فتبصرا مواثل أطلال لسلمى فتهمرا
منازل سلمى هذه إذ رأيتها حوى القلب وجد كامن فتسعرا
متى ماأتاني من هواها خيالها ترى عقد در من جفوني تحدرا
يكاد الهوى يذكي فؤاداً بطيفه ومن شيمة الملهوف أن يتسعرا
يعيرني الواشي بأنَّ بي الهوى كفى ذاك من عار له ليته درى
فدع عنك عذال الجوى في حبيه وهل يرحل الحب المقيم إذا ورى
يصد الخليّون الشجيَّ من الهوى وياليت لو كانت قلوب فتسبرا
تذكرت عهداً من سويعات قربها ومن عادة المحزون أن يتذكرا
وفي القلب نار والدموع أريقها لتطف ولكن ظلَّ نفظاً مسعرا
فدمع سخين ثم نار تلهبت غريق حريق كان كل مقدرا
فراق حبيب ثم يأس ومطمع بوارق حب حيرتني بما عرى
فهذي دواه قد ألمت بهالك فهل من شجي القلب في سائر الورى
إلى اللّه أشكو من غرام وكربة تنيب فؤاد المرء إذ حل أو سرى
ألا يا أساة الحب صبوا دموعكم فهذا دواء للغرام إذا اتبرى
قفوا نبك أطلال الحبيب وعهده فتسكين وجد بالدموع إذا ورى
وياليت أطلال الديار تنضرت فعادت رياضاً بعد ما كان أقفرا
تبسم فيها وردها وعرارها ويحوي فناها كل زهر وعبهرا
هنالك تبدو للعيون مقرة وشعب لقلب في الغرام تفطرا(٣)

ومن فطاحل هذه المدرسة الشعرية عبدالمنان الدهلوي، ويعتبر من كبار العلماء الأفاضل للغة العربية وآدابها في باكستان، وكان آية في الحفظ والذكاء، وله ديوان شعر عربي إلا أنه لم يطبع بعد. وتداول الناس شعره بالإضافة إلى المؤلفات العربية القيمة الكثيرة وله شعر جيد بالفارسية والأردية، أما شعره العربي فإنه يمتاز بنضارة اللفظ وطراوته مع عمق المعنى وجوده الفكر، وأسلوبه الأدبي يحمل طابع الشعر الجاهلي والإسلامي مع روعة الجمال ورونقه.فلننظر إلى قصيدته حيث يمدح النبي ﷺ [البسيط]

محمد صاحب الآيات معجزة حديثه كزبيب نطقه عسل
عفوٌ وسمح وإغضاء ومرحمةٌ خصاله وبحسن الخلق مشتملُ
مأوى الضعاف ملاذُ الخلق قاطبةً غوث الأرامل غيث وابل هطل
برٌ رءوف بمن خفّت أواصره كديمة بذله يعطي ويبتذل
ولا يميل إلى مال ولا سبب ولا على ماسوى الخلاق يتّكل
ختم النبوة لا شك ولا ريب ولا نزاع ولا خلف ولا جدل
يعلم الناس أخلاقاً مطهرة لولاه لم تبرء الأسقام والعلل
يدعو إلى طاعة فرض ونافلة ولا يؤخّره عجز ولا كسل
فظلّ مرتدياً ينهى ويأمرهم وبات مختفياً يبكي ويبتهل
كصخرة عزمه صماء راسخة يروع قافلة الكفّار إذ نزلوا
وقال قائلهم والنار مسعرة للحرب فاشتدّ أينَ اللاتُ والهبل
في بلدة جعل الرحمٰن بلدته ظهور أحمد مختوم به الرسل
وكان مولده فيها وهجرته منها إلى طيبة قد خطّه الأزل
يشدّ راحلةً تطوي مراحله قصواءُ ناقته لم تعدها الإبل
مأمورة لا ترى سهلاً ولا جبلاً عوجاء مسرعة تردي كما الجمل
وكان منتظراً إذ جاءه خبر من السماء بإذن السير فارتحلوا
رفيقه رجلٌ في الغار صاحبه لولاهواه لما بالقبر يتصلُ(٤)

ومن شعراء هذا التيار الشيخ ظفر أحمد العثماني فقد كان الشيخ عالماً متبحراً وفقيهاً ماهراً عارفاً بالكتاب والسنة، زوّد المكتبة العربية بتراث ضخم من الكتب النافعة أكبرها كتابه المشهور "إعلاء السنن". إلا أنه جمع بين العلم والشعر، أنشأ عدة قصائد في المدح والرثاء خصوصاً في رثاء زوجته وأصدقائه. وهذه القصائد تلقي الضوء على شعره الجميل الذي يخلو من التكلف والتعقيد. وفيما يلي نموذج من هذا الشعر الرائع.

قال يندب إلى الأخلاق الكريمة والالتزام بالشريعة [الطويل]

ألا فاستقم لله والرجز فاهجر وأحسن ولا تمنن وربك كبر
تخلق بأخلاق حسان حميدة وجاهد عليها النفس والشوب طهر
وصل على الأوقات لاتغفلنها وحافظ على الوسطى بجد وأوتر
وأد زكوة المال لا تمنعنها فتربولك الأموال بعد التطهر

وصم دائماً لِلّٰه رمضان حسبة يكن جُنة من ذات لهب مسعر
وقم في لياليها بعشرين ركعةً فيشفع لك القرآن يوم التحسر
وحج لبيت اللّٰه لو تستطيعه وزر بعده قبر النبي المطهر
وكن واصلاً للرحم لا تقطعنها وأحسن إلى من جاء بالسوء واغفر(٥)

ومن أبرز شعراء المدرسة التقليدية القاضي عبدالسلام سليم الهزاروي' وأكبر قصائده قصيدة نونية في مدح الرسول عليه الصلوة والسلام اسمها "الجذبة الشوقية في الحضرة النبوية" أنشدها أمام القبة الخضراء، وهي قصيدة بديعة، تزيد على مائة وخمسة عشر بيتاً، بدأها بالتشبيب جرياً على عادة شعراء العرب القدامى. وهو يطيل في التشبيب ويحكي عن شوقه وحبه للرسول ﷺ ويسأل الله تعالى أن يهبه هذا الحب الذي تحيا به القلوب، وتتغذى به الأرواح.

وسوف نقتطف نماذج من هذه القصيدة حتى يقف القارئ على شعره الجميل. بدأ القصيدة بقوله.

[الكامل]

موج الصبابة دائماً غشّاني وأماتني بعد الردى أحياني
أصبحت قد ترك الفؤاد ممزقا وردى خد فاتك فتاني
نارى وصف سال طول زماني قاني لون الدمع من أجفاني
وأذاب أحشائي ضرام غرامه وأسال قلبي اليوم من إنساني
وأذاب أحشائي لهيب صدوده وأمات جسمي عسكر الأحزان
نار الصبابة أحرقتني لوّمي والعذل فيها أحرق النيران
هيهات صبري في الهوى من مهجتي وقريحتي محروقة الهجران

ثم يقول بعد ذلك أبيات مادحاً الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم

أرجو رجاءً كاملاً مستحكما من خالقي من رازقي المنان
أن يمنح العبد الغريب محبة في ذاته بالسر والإعلان
ومحبة المختار يجعل ديدني وغذاء روحي دائماً وأماني
ويضيء قلبي في هواه ككوكب متوقد متهلل نوراني
وضريح عبد يجعلن منورا بسناء نور باهر اللمعان
بضياء نور الحب حب محمد نوّر إلهي مرقدي وجناني

حب الرسول علاج كل بلية أبداً لكل الخائف الملهفان
حب الرسول مزيل كل مصيبة للعاجز الدنف النحيف العاني
حب الرسول جلاء كل طبيعة نور القلوب وواضح البرهان
حب الرسول شفاء أسقام الورى وحيلة قلب المدنف الولهان
وهو النبي الهاشمي المصطفى مختار إنس في الزمان وجان
خير الخلائق كنز أسرار الملأ بدرالكمال وسيد الأكوان
عزّ المراتب والمكارم والعلى وحبيب رب منعم منّان
بحر خضم ذاخر متلاطم فاضت عيون منه في البلدان
الدهر صار بنوره متهللاً والشرك أصبح منه في خذلان
محمود رب الناس في تنزيله كنز المعارف ساطع البرهان

وفي آخر القصيدة يختمها بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام ويسأله أن ينظر إليه نظرة إحسان وعطف ورحمة فيقول:

وعليك لا زالت صلوة إلهنا والآل والأصحاب في الأزمان
وعليك لا برحت صلوة صلاتنا تترى عليك وآلك الشجعان
انظر إلى عبدالسلام برحمة وإلى السليم بناظر الإحسان

هذه القصيدة من القصائد الرائقة، الغنية بالمعاني والألفاظ البديعة والتي يحاكي فيها الشاعر الشعراء القدامى حيث بدأها بالتشبيب الذي لايخلو من العواطف والأحاسيس الجذابة، ويحكي في مطلعها حرقة الشوق ورقة الهوى والولع الشديد الذي أحيا نفسه من كثرة حبه للرسول ﷺ هذا الحب الذي مزق أحشاءه وأحرقها وأشعل النار فيها، وأمات جسمه من كثرة الأحزان، حتى جعل لون دمعه شديد الحمرة، ثم يرجع ويشتكي من الهجران والفراق وأنه لا يستطيع الصبر لأن صبره قد نفد. ويقول إني عانيت الكثير من الهموم والمصائب ليلاً ونهاراً منذ أن بليت بحب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأخيراً يسأل الله تعالى أن يمنحه محبة في ذات المصطفى عليه الصلوة والسلام، لأن محبته فيها غذاء للروح، وضياء للقلوب، وحياة لكل موحد، وفيها علاج للجسم من كل بلية.

ويختم الحديث بمدح الرسول، وهو يعدد محاسنه وأفضاله وإن الله تعالى قد اختاره من بني هاشم وهو خير الخلائق، بدر الكمال، سيد الأكوان، الذي أزال الشرك وعم النور بوجوده وغير ذلك(٦).

وننهي الحديث عن هذه المدرسة التقليدية في الشعر العربي في باكستان بذكر شاعر معاصر قد توفي في

خمسينات القرن العشرين وله ديوان شعر عربي مطبوع كما أن له ديوان شعر فارسي قد تجاوز عدد أبياته الشعرية أربعة آلاف بيت ورغم أنه قد عاش في القرن العشرين ورغم أن شعره العربي شعر رصين ويحمل رونق اللفظ وروعة المعنى إلا أنه قد نسج على منوال الشعر الجاهلي والإسلامي، ولا يوجد فيه ما يدل على أنه كلام شاعر عربي معاصر قد عاش في القرن العشرين الميلادي، وهو الذي يقول:

لقد نادى بفرقتنا غراب فراع القلب بالبين النجاء
كأن القلب مني يوم بانت كريشات تطيربها الخلاء
دعا ذكر الشباب إلى التصابي وهل عند الصباح لي المساء
يباب هال نفسي ذوشجون وكلت ناقتي و وهي السقاء
وما في الدهر أشقى من كئيب أراد الضحك حم له البكاء(۷)

ومن أبرز شعراء العربية في المدارس الدينية باكستان محمد يوسف الكاملفوري ونقيب أحمد الديوى ومحمد إدريس الكاندهلوي والمفتي محمد شفيع والقاضي عبدالرحمن الكاملفوري والمفتي جميل أحمد التهانوي ومحمد موسى خان الروحاني البازي ورضاء الحق المرداني والشيخ فضل محمد السواتي والشيخ عطاء المنعم البخاري وغيرهم.وأهم موضوعات هذا الشعر يدور حول الحمد والمدح والمناقب والرثاء والشكوى(۸).

أما شعراء المدرسة التجديدية في باكستان فبما أن الجامعات والمعاهد العلمية الحكومية تملك إمكانيات ووسائل كثيرة لاتوفر للمدارس الدينية الأهلية غالباً أمكن هؤلاء الشعراء الراحلين من المدارس إلى المعاهد العلمية والجامعات الحكومية التقلب في الأسفار وكثرة الاطلاع على الجديد وتحقق لهم التبادل الثقافي والاحتكاك بأهل اللغة وتمكنوا من الحصول على الدواوين والمجاميع الشعرية لكبار الشعراء العرب لكل عصر من العصور وكل مكان من البلاد العربية المختلفة، ومن ثم أمكن للكثيرين منهم أن يطلعوا على الشعر العربي على اختلاف الأنواع والأزمنة والأماكن وبالتالي استطاعوا أن يأتوا بالإنتاج الشعري يمثل عصرهم وبيئتهم، فبتوسع دائرة ثقافتهم تحرّروا من أغلال التقليد للشعر العربي القديم وخرجوا من إطار الموضوعات الشعرية التقليدية وطرقوا أبواباً جديدة من الشعر العربي واتخذوا أساليب جديدة في قرض الشعر.

ومن أهم شعراء هذا التيارضياء الحق الصوفي، ومحمدأفضل فقير، والدكتور محمد جميل قلندر، والأستاذ محمد حسين اقبال ومحمد ناظم الندوي والدكتور خورشيد حسن الرضوي وعبدالعزيز خالد والدكتور الحافظ عبدالرحيم والأستاذ عبدالواحد نديم والميرزا آصف رسول، والشيخ لطافت الرحمن السواتي.وفيهم من أنتج شعراً غزيراً حتى نصب له ديوان شعر يستحق الدراسة والاهتمام فمن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد جميل قلندر الذى تثقف عليه أجيال من أساتذة العربية في باكستان.

والأستاذ الدكتور محمد جميل قلندرمن أعلام الشعر العربي في باكستان في عصرنا الحاضر. تقاعد عن

وظيفة التدريس في قسم اللغة العربية بالجامعة القومية للغات الحديثة بإسلام آباد حالياً، ومازال يقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.يقول عنه الدكتور كمال عبدالعزيز المصري مدير مركز الدراسات الأساسية بالجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد سابقاً. "وهو الشاعر الواعد بالأمل ، الحالم بالفردوس الأبهى، يتميز عن بقية شعراء باكستان الذين كتبوا أو يكتبون بالعربية بأنه الشاعر الوحيد- فيما أعلم- الذى يكتب القصيدة العربية الحديثة (قصيدة التفعيلة) بالإضافة إلى قدرته على كتابة القصيدة العمودية"(٩).

ويبدو أن تقلبه في الأسفار وكثرة اطلاعه على الجديد وإقامته في لبنان وسوريا أثناء دراسته لدبلوم التربية ١٩٧٥م، يبدو أن كل ذالك هو الذي أعطى لشعره هذه النكهة الخاصة الذي أخرجته من أسر الثوب التقليدي العتيق الذي درج عليه شعراء العربية في باكستان. وهو شاعر مرموق في لغته الأردية أيضاً، وله بها ديوان مشهور بعنوان "كشكول" هو محل عناية النقاد والدارسين بالأردية. ومازال عطاؤه المتميز ثراء غزيراً على الساحة الأردية والعربية.

احتفظ الأستاذ محمد جميل قلندر طيلة حياته الفكرية بالفكرة القائلة أن البيئة جسم الإنسان الثاني وثوبه ومرآته ـ الفكرة التي استلهمها مما ورد في القرآن من ذكر الجنة (البيئة المثلى والمدينة الفضلى وحظيرة القدس والحب والجمال الأبهى والمعيشة الحسنى). وما أجدر هذه الفكرة أن تكون محور ديوان "حلم الفردوس الأبهى" لفيلسوف البيئة محمد جميل قلندر ـ كأس دهاق من معين شعري متدفق ذي متعة روحية وفكرية ولذة للمشاريين(١٠).وفيما يلي بعض الأبيات من قصيدة من ديوانه المطبوع "حلم الفردوس الأبهي" وهو بصدد طبع ديوانه الثاني.رؤى الهوهو [الهزج]

هُو أنت ، أنا الهوهو ولات ما سوى الهوهو
لم، كيف، وما الهوهو وأين يا ترى الهوهو
إذا أظهرتَ دنيانا فغبتَ أيها الهوهو
هل الهوهو صدى الكون أم الكون رحى الهوهو
وكم من لمحة البرق ترينا من رؤى الهوهو
وكم من شاشة الروح لتعكس من سنا الهوهو
وكم من رعشة العود لتسمعنا غنا الهوهو
وكم من موجة البحر لترقص من جوى الهوهو
وكم من شعلة الورد تفوح بندى الهوهو(١١)

ومن فطاحل هذه المدرسة الشعرية محمد أفضل فقير، ويعتبر من كبار العلماء الأفاضل للغة العربية وآدابها في باكستان، وكان آية في الحفظ والذكاء، وله ديوان شعر عربي مطبوع. وتداول الناس شعره بالإضافة إلى المؤلفات

العربية القيمة الكثيرة وله شعر جيد بالفارسية والأردية، أما شعره العربي فإنه يمتاز بنضارة اللفظ وطراوته مع عمق المعنى وجوده الفكر، وأسلوبه الأدبي يحمل طابع الشعر الجاهلي والإسلامي مع روعة الجمال ورونقه.

يقول الأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر عن أسلوب شعره "ومن الجوانب المهّمة في الأسلوب الشعري عند الأستاذ محمد أفضل فقير الشاعر هو ميله إلى غريب اللغة العربية واهتمامه الخاص بها على دأب البعض من الشعراء الكبار في الجاهلية والإسلام كذى الرمة والفرزدق وغيرهما.... ومن ظواهر اللفظ والمعنى في الأسلوب عنده هو تأثره بالقرآن الكريم. قصائده حافلة بالتعبيرات والمفردات القرآنية.... ويجدر بنا أن نشير إلى ما يمتاز به شاعرنا المتصوف وذلك أنه مجال لم يضطلع له إلا القلة القليلة من شعراء العرب الكرام ومنهم الشاعر المتصوف ابن الفارض المصري رحمة الله عليه، والسبب في ذلك أن مفردات العربية وبحورها الشعرية تثقل على أوزان الرباعي أو الدوبيت أوقل إن هذا الوزن ميزة قد خصت بها الفارسية والأردية... وهو صنف شعري صعب المنال وحتى عند شعراء هذه اللغات ولكن شاعرنا المتصوف قد أقبل على هذا الصنف الشعري... والجدير بالذكر بهذه المناسبة أن للدوبيت أو الرباعي الفارسي أربعة و عشرون وزناً بنوعيه الأخرب والأخرم، وقد استخدم ابن الفارض رحمه الله فيها بضعة أوزان فقط. أما شاعرنا الباكستاني فقد استوعب أوزان الرباعي كلها فقال الدوبيت في أربعة وعشرين وزناً فلابن الفارض فضل السبق في هذا المجال وأما الشاعر الباكستاني هذا فله فضل الأوّلية في الاستيعاب والكمال"(١٢).

ونورد فيما يلي بعض أبياته من قصيدته في الحمد [البسيط]

سبحانه وتعالى ذاك معبود إذا المواجيد تفنى وهو موجود

ربّ السموٰت والأرض استعان به أهل الرشاد فمنه النصر موعود

الخوض في كنهه يستلزم الضررا تفكر المرء في الألاء مسعود

إذا حقيقته في النفس ثابتة فينفع العبد لامولاه تحميد

في ذاته أبدي لا شريك له وفي الصفات مع الأسماء محمود

فكيف يهدى إلى إدراكه البشر إذ لانتهاء له والفكر محدود

يغمّد الناس بالنعمى وحين عصى عبد تجاوز عنه جوده الجود

ويمسك الطير في جوّ السماء إذا لهنّ من لطفه فيها الأغاريد

تطيعه الشمس من اتباعه القمر واليل شاهده والفجر مشهود

يحافظ الخلق من أمر يصيبهم فمن لوازم ذات الحق تسهيد(١٣)

ونورد فيما يلي بعض الدوبيت للحافظ محمد أفضل فقير

(أ)

محبوب المولى ساد الأسلافا كالخير حوى جزاؤه أضعافا
بالنعت لمن والاه استكرام قد كان الرحمن له وصّافا

(ب)

في سيرة شارع الهدى سلطان من لامعها تلألأ العرفان
لاتبلى من تداول الأيام من يستمسك بها له البرهان

(ج)

الدّين ومن يلزمه بالأدب ماخاب من اهتدى به في الطلب
لم تستكمل مكارم الأخلاق إلا بشريعة الرسول العربي(١٤)

ومن أعلام هذا التيار الشعري في باكستان الدكتور خورشيد الحسن الرضوي حيث يمتاز شعره بوصف دقيق وتشبيه بليغ وأسلوب رائع خلاب فها هو يقول يتغزل:

دنت كغزال خالص اللون شادن سقيم الجفون فاتر اللحظات
فخلت فؤادي ذاب بين جوانحي وكدتّ أشقّ الصدر بالزفرات
أسلماي إن أعرضت عني بعدها أصبت صميم القلب بالنظرات
فلا تحسبي أنّ النوى عزت الهوى ولا أن طول الهجر رثّ صِلاتي
فطيفك لاينفك عني ساعة ملأت عليّ يقظتي وسباتي(١٥)

ومن شعره الحر بعنوان "الجمال المنسي":

نجمة في الأفق كالزئبق ترنو
عبر أعصر
عين من في هذه النجمة تحلو
لست أذكر
نجمة أخرى كمثل القرط في أذن السماء
تتألق
جيد من، من تحت هذا القرط في رحب الفضاء

يتـــــــــرقـــــــــرق

وجبيـــن البـــدر كـــالـــديـــنـــار مـــن خـــلـف التـــلال

يتـــــنـــــطـــــلـــــع

وجـــــه مـــن فـــي الـــحـــلـــم فـــي ستـــر الـــخـيـــال

يتـــــقـــــنـــــع

إنـســمـــــا الـــلـيـــل حبيـــــب حـــل فيـــنـــــا

فـــــاتـــن حـــلـــو الشـــمـــائـل

فـــــي بهـــــاء وجـــــمـــــال قـــد نسيـــنـــــا

فهـــو مـنبـــت الـمـخـايـل (١٦)

ومـن أصـحاب الدواوين من شعراء العربية في الجامعات الحكومية الأستاذ محمد حسين إقبال، ويمتاز شعر الأستاذ محمد حسين إقبال بثلاث ميزات أولاها إنه شعر لايشوبه شيء من التكلف والتهجس، إنما هو شعر قد جاد به طبع فياض خصب غزير يقدر على التعبير والبيان كما أنه يقدر على الابتكار والإبداع، والميزة الثانية التي يمتازبها هذا الشعر هو تنوع المعاني والموضوعات من المدح النبوي ومناقب الرجال ومن الوصف إلى تجارب الحياة و النصائح والعظات و من الحماسة إلى الحِكم، وهذا التنوع وهذه الأصالة مما يخلو منه شعر من سبقه من الشعراء في شبه القارة من حيث أنهم لم يتحرروا من التبعية والتقليد إلا قليلاً كما أن أكثرهم لم يخرجوا من موضوع المدح والرثاء أوشعر المناسبات.

والـميـزة الـثالثة هـي بـراعة الاستهـلال فـالشـاعـر يبدأ قصائده بكلمات جميلة ومعنى بديع يدل على براعة الاستهلال كمثال ـ يستهل قصيدته فى مدح سيدنا الحسين رضي الله عنه بمطلع.

عـــودت نـــفسـي مـدحة السـادات لـم أختـلـق بيتـاً لـنيـل صـلات

ويقول في مطلع قصيدته في مدح الإمام أبي حنيفة رحمه الله

إن الـــحـــكيـــم لتـــارك الأخـطـــاء وكـذا الـفـقيـه مـجـانـب الأهـواء

ويبدأ قصيدته في مدح الدكتور محمد حسن بقوله

الـنـور والـظـلـمـاء مـختـلـفـان وكـذا الـحـديـد وخـالـص الـعقيان

والـعـلـم نـور والـجهـالة ظـلـمة وبـغيـره الإنسـان كـالـعميـان

وهـكـذا في كثير من الـقـصـائد تظهر براعة الاستهلال ودلالة على أن للشاعر ملكة راسخة للشعر العربي

ومطالعة عميقة للآداب العربية(١٧).

وننهي الحديث عن هذه المدرسة التجديدية في الشعر العربي في باكستان بذكر شاعر معاصر قد توفي في تسعينات القرن العشرين وله ديوان شعر عربي مطبوع كما أن له مؤلفات قيمة ومقالات عديدة في اللغة والأدب؛ وبما أنه قد عاش في القرن العشرين نراه يتمشى مع مقتضيات هذا العصر ويطرق أبواباً وموضوعات جديدة لم يتطرق إليها شعراء العربية من المدارس الدينية، وإن شعره العربي شعر رصين ويحمل رونق اللفظ وروعة المعنى، وقد يوجد فيه ما يدل على أنه كلام شاعر عربي معاصر قد عاش في القرن العشرين الميلادي، وهو الذي يقول في وصف رجل القرن العشرين وبيان نشاطه في مجال العلم:

يواصل كدحاً ليله بنهاره ... دؤوباً لنيل المجد غير كليل
عكوفاً على درس العلوم بفكره ... مضيفاً إلى البحث نتاج عقول
يبيت الليالي باحثاً متطلعاً ... ليدرك سراً غامضاً بدليل
كذلك يقضي صبحه ومساءه ... غراماً بكشف العلم نجد عقيل
ويعمل جهداً فكره في تفحص ... وكل الذي يفريه جد جميل
يظل دؤوباً ساعياً متحققاً ... ولا ينثني إلا بأصل أصيل
يغوص بفكر في العناصر باحث ... فما يخرج إلا بعلم جليل
يقلب فكراً في التجارب جاهداً ... وليس الذي يدعه بضئيل(١٨)

وقال يتغزل وهو في ريعان شبابه سنة ١٩٣٤-١٩٣٥م [الطويل]

ونائمة قبلتها فتنبهت ... وقد ساءها مني هيام مؤجج
وظلت صفوحاً ماتكلم ساعةً ... وحمرة خديها كنارٍ توهج
وأبدت دلالاً ما سمعت بمثله ... مدى العمر من حسب يدل ويغنج
وقالت لقد صلت علي بشفرةٍ ... مولة حمراء تلوى وتعوج
ولولا انتباهي من منامي لقد ذوت ... جنيبة خدي التي تتبلج
فقلت لها يامنية النفس إنني ... لذيع بنارٍ من هواك تأجج
فحاولت تخفيف الجوى بي لعلني ... ببعض رشيفاتٍ أراح وأثلج
معاذ الإله أن أصيبك بالأذى ... وآتي إليك بالذي هو يحرج
فجادت لي الحسنى ولان كلامها ... وقد فاح من أرد انها المسك يأرج

هـو الـعيـش إلا أنـه لـمـحة مـضـت كسـهـمٍ مـن الـقـوس الـصـليـة يـخـرج(١٩)

ومن الموضوعات الجديدة التي تميز بها شعراء المدرسة التجديدية عن شعراء المدرسة التقليدية في باكستان الوصف والغزل والفخر والحماسة والفلسفة. (٢٠)

الهوامش

١- ظهورأحمد أظهر: "الشعر العربي وتطوره ومذاهبه في شبه القارة"، *مجلة المجمع العربي الباكستاني*، المجلد الأول العدد الثالث، ص٣٦.

٢- مختار محمد حبيب اللّٰه: *القصائد البنورية*، ص ٧٥- ٧٩.

٣- مختار محمد حبيب الله: المرجع نفسه، ص ص ١٨٦-١٨٧.

٤- *أنوار مدينة*، المجلد ١، العدد٩ (ذو الحجة ١٣٩٠ھ /فبراير ١٩٧١م) : ص ٢٠-٢٢.

٥- *مجلة الفاروق*، السنة الثانية، العدد الخامس، (رجب-شعبان- رمضان ١٤٠٥ھ/١٩٨٦م) : ص ص ٤٦-٤٧.

٦- عبدالله، محمود محمد : *اللغة العربية في باكستان دراسة وتاريخاً*، ص، ٤٥١-٤٥٤ - وفيوض الرحمن الدكتور: *معاصرين إقبال*، ص٦٣٧- ٦٣٩- والقصيدة بأكملها موجودة في *مجلة الرشيد*، العدد الخاص بالمديح النبوي، ص ٣٤٦-٣٥٧.

٧- أصغر علي روحي: *الديوان*، ص ٤٣

٨- لمزيد من التفصيل راجع : همداني، حامد أشرف: "الشعر العربي في باكستان" رسالة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور باكستان٢٠٠٧م.

٩- *مجلة قيادة*، المجلد ٢ العدد ٩-١٠ مارس ٢٠٠١.

١٠- قلندر، محمد جميل : *حلم الفردوس الأبهي*، الصفحة الخارجية- و محسن، عبدالكبير: "الفكرية الشعرية لدى محمد جميل قلندر" *مجلة القسم العربي جامعة بنجاب*، العدد ٧، (السنة ٢٠٠٠م): ص ١٤١-١٤٨.

١١- قلندر، محمد جميل : *حلم الفردوس الأبهى*، ص ٧-٩.

١٢- فقير، محمد أفضل : *شآبيب الرحمة*، تقديم : د.ظهور أحمد أظهر، ص ١٤-١٦.

١٣- فقير، محمد أفضل : *شآبيب الرحمة*، ص ٣٩-٤٠.

١٤- فقير، محمد أفضل، *شآبيب الرحمة*، ص ٧٣-٧٤.

١٥- الأبيات مأخوذة من الشاعر نفسه.

١٦- إدريس، أحمد الدكتور : *الأدب العربي في شبه القارة حتى نهاية القرن العشرين*، ص ١٩.

١٧- محمد حسين اقبال، حديث النفس، قدم الدكتور ظهور أحمد أظهر، ص ص ٩-١٠.

١٨- محمد ناظم الندوي: *باقة الأزهار*، ص ١٢.

١٩- الندوي، محمد ناظم : *باقة الأزهار*، ص ٤١.

٢٠- لمزيد من التفصيل راجع : همداني، حامد أشرف: "الشعر العربي في باكستان" رسالة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور باكستان٢٠٠٧م.